صانعو التاريخ العربي

كتاب لفيليب حتي

بقلم :

الأستاذ سعيد الأفغاني

صانعو التاريخ العربي

تأليف الدكتور فيليب حتي ترجمة الدكتور أنيس فريحة

٣٨٠ صفحة بالفهارس ، من القطع المتوسط

بيروت – دار الثقافة (الطبعة الأولى سنة ١٩٦٩ م)

المحتويات كما ذكرها المؤلف :

الكتاب الأول في الدين والسياسة : محمد – عمر – معاوية – عبد الرحمن الأول – المأمون – عبيد الله المهدي – صلاح الدين .

الكتاب الثاني في ميدان الفكر : الغزالي – الشافعي – الكندي – ابن سينا – ابن رشد – ابن خلدون .

هذا الكتاب حصيلة ما ترسب من انطباع في ذهن مؤلفه عن العرب والإسلام في فترتين من حياته ، فترة شبابه وفترة استقلاله ، ويشبهه في ذلك عدد من ناشري الكتاب ؛ وإذ كان هؤلاء يمثلون شبه ظاهرة في أيامنا هذه ، كان من الحق والأمانة لتاريخ عصرنا بيانها صريحة غير مجمجمة :

فأما الفترة الأولى فقد كان فيها فريسة عوامل ثلاثة ، كلها وضع على عينيه نظارة سوداء مقعرة في جزء ، محدبة في جزء بعد أن شحنت نفسه الناشئة

المتفتحة لما يوحى إليها، بكل ما في الصليبية[1] المتوارثة عند دول الاستعمار من حقد وعداوة للعرب والإسلام ، ومن تزييف للحقائق واختراع للسير والأحكام ، ثم قيل له : بهذا المنظار انظر كلما أردت أن تعرف أو تذيع شيئاً عن العرب والإسلام .

هذه العوامل الثلاثة هي : الكنيسة، والغزو الفكري الأجنبي المتمثل في المبشرين والمستشرقين ، والبيئة العامة التي نشأ فيها وكانت قد اتخذت اتجاهات خاصة أواخر أيام العثمانيين ، حول سنة ١٨٦٠ م بالتحديد . خلق هذه الاتجاهات وغذاها الدول الأجنبية ذات الأطماع القديمة المعروفة في بلاد الشام (ساحلاً وداخلاً) ؛ فاستغلت ضعف الدولة العثمانية (الرجل المريض) واستغلت تمتعها بالامتيازات التي لا حدود لها في جسم هذا الرجل المريض حتى أصبحت دوائر قناصلها حكومات داخل حكومة ، فكان لروسيا وفرنسا وإيطاليا وإنكلترا وأمريكا وحتى الدانمارك وهولندا وبلجيكا.. فئات من الإرساليات التبشيرية (كنائس ومدارس ومستشفيات) في هذه الرقعة الصغيرة من الأرض بين جبال طوروس وغزة . وكانت القدس وبيروت أكثرهـا مباءات لتلك الدول ؛ ولم يكن فيها حينئذ مدارس نظامية للتعليم غيرها ،

---

(١) يخلط بعضهم بين النصرانية والصليبية لذا كان من الواجب التفريق بينها :

فالنصرانية هي الدين الذي جاء به السيد المسيح عليه السلام، والصليبية هي الروح الخبيثة التي شحن بها بابوات القرون الوسطى أتباعهم من العوام الأوروبيين حتى تيسر لهم تجهيز حملات متطوعة منهم لإنقاذ الأرض المقدسة – زعموا – من أيدي المسلمين. وكان من هذه الحملات وباء جارف من الوحشية والقذارة والبعد عن الإنسانية ، واستمرت نحو مئتي عام ، رجع بعدها الصليبيون إلى بلادهم وقد اكتسبوا – على رغمهم – شيئاً من حضارة المسلمين . وما زالت هذه الروح الخبيثة تنمو وتتطور حتى صارت في أيامنا غزواً ظاهراً وخفياً وحرباً لا سرية فيها ميادينها الأديان والأوطان والأفكار والأذهان، والكتب ومنابر الجامعات والمؤتمرات .. ثم نقوم أبنائنا الذين نرسلهم ليتعلموا في أوروبا وأمريكا كل اختصاص حتى التاريخ والعربية والشريعة ، إي والله حتى العربية والشريعة في بعض الاقطار الغربية فيأتوننا – إلا من عصم الله – بما يريد العدو من أفكار تدمر كل قائم من مقومات المجتمع ، كل يعمل لهم في اختصاصه .

إلاّ ما ندر من كتاتيب عزف عنها غير الفقراء من الناس .

من هذه المؤسسات نشأ معلمو الأجيال اللاحقة ، فزرعوا في نفوس تلاميذهم ما كان زُرع فيهم من جراثيم الوباء، وتسلسل الوباء وانتشر حتى صار سلطة ذات قوة تؤيد أفكارها ومبادئها بالنار والحديد أيـام الاحتلال الفرنسي في النصف الشمالي من سورية ، والاحتلال البريطاني في نصفها الجنوبي . وحمل النشء هذه النوازع الأثيمة بمقادير تتفاوت تبعاً لاستعداد كل نفس وما فيها من مناعة أو طواعية ، وتبعاً للطائفة التي ينتمي إليها الناشئون وللأسر التي يربون فيها.

وأما الفترة الثانية فحين يلتحق الناشىء بالجامعات، ويتغرب في طلب العلم في أوروبة وأمريكا وتؤخذ نفسه بالظاهر المنتشر هناك من روح الحرية والاستقلال في الرأي ، ويحاول ــ إن كان فيه نزوع للخير ــ أن يكون حراً مستقلاً فيما يطالع ويتخذ من رأي، وربما كان مخلصاً في ابتغائه لنفسه التحرر و (موضوعية البحث) والنزاهة في الحكم ، لكن (الروح اليهودية الخفية) المتغلغلة بخبث ونعومة في أروقة الجامعات الأوروبية والأميركية منذ القرن الثامن عشر تسوقه إلى المزالق من حيث لا يشعر ، إذ صرفت اتجاهه عـن المصادر السليمة في بحثه (وهو أيضاً ضعيف في لغتها لم يألفها) ، وأحاطته بل أغرقته بالمصادر الملوثة (الموجهة) ذات المنهج البراق، فتملأت نفسه منها وصدر عنها في أحكامه . ولا يبرئه من التبعة في رأي العلم والحق حسن نيته وأنه لم يهتد إلاّ إلى هذه المصادر المضللة.

ما أردت بهذه الأسطر دفاعاً عن المؤلف، بل تقريراً لواقع أحاط به ولا يد له فيه، إنه مسيَّر غير مخيَّر ، شأنه شأن عشرات ممن أغرقوا أسواق بيروت بكتبهم واستولوا على منابر في جامعات بمساع ممن منحهم الشهادات في فترة أظنها بشّرت بالانقضاء بإذن الله، فترة أسميها (فترة الانبهار بالبريق الأجنبي) . ، فترة أعرف من أساتيذها عدداً إذا لم يروا في بحوث طلابهم

وعلى صفحاتها قائمة بالمصادر الأجنبية بأحرفها اللاتينية ولو كان البحث في (لغة باعة البقول في سوق القرية) أسقطوا البحث وقالوا: بحث غير جامعي ولا منهجي !!

لا بد من هذا البيان إنصافاً للمؤلف وأمثاله، وحين يستطيع الإفلات من هذا الإطار وذلك المنظار ويترك عقله وعينيه ترى الأشياء كما خلقها الله يقع على صواب كثير لا يخفى على المتأمل في كتابه وسأشير إلى بعضه.

شيء واحد وددت أنه لم يقع، هو الزج بكلمة (تاريخ) في عنوان الكتاب وفي صفحاته كما زُجّ بكلمة (البحث العلمي)، وكان الصدق أن يكون العنوان: (انطباعاتي عن عظماء عرب)، وسترى أن الكتاب ليس من التاريخ في شيء لفقدان صاحبه الأدوات التي لا بد منها لمن يكتب عن العرب والإسلام، وأن ما فيه من صواب هو نتيجة اللحظات التي تحرر فيها المؤلف من سلطان الشحنات السابقة.

* * *

خطة الكتاب التي سلكها المؤلف في انتقاء مصادره واهية جداً، وهي هي التي أبعدت كتابه عن الالتحاق بكتب التاريخ أو شبه التاريخ، قال في مقدمته القصيرة:

«إن المادة التي اعتمدناها في هذه الدراسة مستمدة من المصادر الأولية(؟)، بعد مقابلتها بنتائج الأبحاث العلمية (!!!؟) التي قام بها علماء في الشرق والغرب (؟). ولذا لم نرَ ضرورة للقيام بأبحاث مستجدة، فقد استفدنا من المادة التي أثبتناها في كتبنا السابقة: (تاريخ العرب) و(تاريخ سورية) و (تاريخ لبنان) و (تاريخ الشرق الأدنى.[1])»

ويعلم المؤلف الفاضل أن كتبه المذكورة لا تصلح مصادر للاعتماد،

(١) ص ٧.

لانجراره فيها على أذيال أجانب بعيدين كل البعد عن روح الأمة العربية في بقاعها ، وعن تمثّل روح الشعوب التي يحاولون الكتابة عنها ، والديانات التي يدينون بها ، وهيهات لمثلهم أن يطابق كلامهم الواقع على حقيقته مهما يحاولوا ، هذا فيمن حسنت نيته منهم ، بصرف النظر عمن يرغمون المعلومات على خدمة أهداف موجهة من الأصل توجيهاً مرسوماً سابقاً لزعزعة مجتمع ما ، إنهم يصبون في ذهنه عصارات سامة تلتهم إيمانه بنفسه وبتاريخه وبأمته وبدينه وبلغته وبكل مقوماته الأصيلة كما تفعل العناكب السامة فيما يعلق بشباكها تمهيداً لافتراسه .

كان على المؤلف أن يبين ماذا يعني بـ (المصادر الأولية) ، ألم يقل في مقدمته : « ولو أن كاتباً غيرنا حاول ما حاولناه ... لكان فسّر التاريخ على غير ما فسّرناه . »[1] والذي ينعم النظر في حواشيه التي يعزو فيها إلى مصادره يجدها قليلة جداً ، ويجد أن بعضها لا يصلح مصدراً في دراسة نزيهة جادة ، ولا سيما الأجنبي منها ، ولعل أكثر مصادره اطلاعاً هو الأب (لامنس) ، والمؤلف يعلم أنه ذو نزعة متطرفة متهورة بعيدة عن الأمانة ، موغلة في تزييف الأحكام ليحظى برتبة (قديس) جزاء جهوده في غسل أدمغة تلاميذه في منطقة الاحتلال الفرنسي وقراء كتاباته خارجها ، من كل حقيقة تتعلق بالعرب والإسلام ليحل محلها الزيف الذي صنعه ، ويعلم كذلك أن جمهرة المستشرقين لا تعتمده ، مع إقراري أنا شخصياً بأنه من أكثرهم اطلاعاً على تراثنا ، لكن نقله واستنباطه لا أمانة فيهما البتة .

أما شهادة المؤلف بأن (لامنس) « أنصف الأمويين في حكمه »[2] فلعل مردها إلى النظرة السطحية المتسرعة الساذجة ، فلامنس آخر من يلفته الإنصاف ، لكنه رأى مؤرخين عرباً اتهموا الأمويين بقلة الدين والجور

---

(١) ص ٧ .

(٢) ستمر إشارة أخرى إليه في بحثنا (البناء على الشاهد الأبتر) في العدد القادم إن شاء الله .

وبتقريب النصارى والعكوف على الخمور والملذات ، فكان رد الفعل عنده أن يُشيد بهم من حيث ظن خروج كثرتهم على الإسلام فذلك ما عطفه عليهم[1].

ما أظن أن المؤلف الفاضل الدكتور فيليب حتي يماري في أن الخطوة الأولى في الأسلوب السليم في التأليف، هي عرض المصادر ونقدها وغربلتها وتقويمها ثم تصنيفها قبل المضي في الاعتماد عليها، وهو ما لم يفعله في كتابه هذا ولا كتبه السابقة التي اعتمد عليها. ومن هنا استبعدنا أن يكون هـذا الكتاب تاريخاً أو دراسة علمية، إنه انطباع شخصي بعد رؤية بالمنظار الأسود المهوش الذي وصفنا آنفاً ، فلننظر في بعض أجزاء لبعض الصور التي نتجت عن هذه الرؤية :

• • •

عن الرسول :

لم يستند في أكثر كلامه عنه على حقائق موثوق بها تاريخياً ، بل خلط روايات بتفاسير شعبية وأساطير قال إنها (إسلامية مسيحية) كأسطورة (بحيرى الراهب) التي لم تصح ، ليسوغ لنفسه أن يقول :

١ — « إنها تعكس لنا شيئاً عن العلاقات القديمة بين الديانتين وعن أثر المسيحية » — ص ١٦ .

ونقول : إن الذي لا أصل له — ويوافقنا عليه المؤلف فيما نظن — لا يعكس شيئاً البتة، والأساطير والروايات الموضوعة فيما بعد ، لا تقرر حقائق سابقة، فخيالُ أن يكون علاقات قديمة بين الديانتين أضغاث أحـلام .

٢ — « ينبغي أن يكون النصارى الذين تعرف إليهم النبي (كذا، كأنه انتهى

---

(١) الحاشية السابقة .

من تحقيقه) من جماعة السريان أو الأقباط أو الأحباش على أطراف سورية والعراق » ص ١٧ .

ما مصادرك في أنه تعرف على نصارى ؟ من هم ؟ ولماذا (ينبغي أن يكون) ؟ ومن وضع الأحباش على أطراف سورية والعراق ؟ أسئلة أعفى المؤلف نفسه من الجواب عنها بل من التفكير فيها .

٣ ـ « ولربما كان النبي ينتفع بالقراءة والكتابة في تصريف شؤونه ، ولكن يبدو أنه لم يكن متأكداً من أنه يستطيع أن يكتب أموراً في الدين » ! ! ! ـ ص ١٨ . لا تعليق ، ولعل لهذه الجملة معنى في الأصل الإنكليزي .

أعرف أن مبشرين ومستشرقين حاولوا بكثرة التكرار إيهامنا أنه صلى الله عليه وسلم يعرف الكتابة ، لكنها كانت محاولة صبيانية ساذجة ، وإلاّ فهل كان يسكت القرشيون الألداء في خصومتهم عمن تحداهم بالقرآن وبأنه أمي لا يكتب وهو يقرعهم كل يوم بالآية الكريمة : « وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك ، إذاً لارتاب المبطلون »[1] ، لو عرفوا أن له إلماماً ولو قليلاً بالكتابة ؟

لم يسأل المؤلف نفسَه هذا السؤال وهو يحاول كتابة تاريخ !

٤ ـ « وأول من استجاب لهذه الدعوة الكريمة بعد صحبه والأقربين من أهله كانت جماعة المنبوذين والمعدمين والعبيد ، وهم الذين أشارت إليهم الآية الكريمة « واتبعك الأرذلون » ـ سورة الشعراء ١١١ . »

لا أيها الفاضل ، إن هذه الآية نزلت في أتباع نوح لا أتباع محمد ، عد إليها وابدأ قبل سطرين فسترى أن مصادرك خاطئة .

٥ ـ « واعترافه بالكعبة وبالحجر الأسود وببئر زمزم وهي من بقايا الجاهلية العربية ، جعل الإسلام يبتعد عن الديانتين التوحيديتين اليهودية والنصرانية . ص ٣١ .

---

(١) سورة العنكبوت ٢٩/٤٨ .

تساءلت : أبقي مثقف أجنبي (بله العربي) من دارسي تاريخ العرب سنة تأليف الكتاب لا يعلم ان هذه بقايا من دين إبراهيم ، استغلها عرب الجاهلية لأوثانهم ، حتى جاء الإسلام فأعاد لها مكانتها الأولى وطهرها من الأوثان والأصنام ؟

وأدعى إلى العجب أن يعترف المؤلف بعد أسطر بقوله « لاقى النبي العربي والقرآن الكريم على يد المسيحيين في العصور الوسيطة من التشويه والتشنيع الشيء الكثير ، وتبدو هذه الحقيقة مذهلة لأن الإسلام من (بين) جميع الأديان الأخرى أقرب دين إلى المسيحية .. الخ » ص ــ ٣٢ .

تولى المؤلف الرد على نفسه فكفانا المؤونة ، وسيكون أقرب إلى الواقع حين يحذف في طبعة قادمة قوله (في العصور الوسيطة) ، فالأمر ــ كما يعرف ــ استمر واتسع في عصرنا هذا ، وكان حاله في الأقربين أشد منها في الأجنبيين .

عن عمر :

٦ ــ « كان عمر أكثر اقتداراً من أبي بكر ... عمر حاول أن يقضي على حروب الردة » ــ ص ٣٧

٧ ــ « كان عمر في الخامسة والأربعين من عمره عندما دخل الإسلام » ص ٣٧ ــ « وكان عند إسلامه في الرابعة والثلاثين من عمره » ــ ص ٤٠ !!!

٨ ــ « الواقع أن هذا الكتاب الذي كتبه عمر إلى الأمصار يفصح[1] عما كان يضمره من حسد . » !! ــ ص ٤٨ .

---

(١) وهو : « إني لم أعزل خالداً عن سخطة ولا خيانة ، ولكن الناس فخموه وفتنوا به ، فخفت أن يوكلوا إليه ، فأحببت أن يعلموا أن الله هو الصانع .. »
والظاهر أن المؤلف خفي عليه معنى « فخفت أن يوكلوا إليه » وهو عكس ما قاله تماماً ، هو إبعاد عن تفخيم الأشخاص بله عبادتهم .

٩ ـ عقب المؤلف على إقامة عمر الحد على ابنه أسوة بغيره من عامة الرعية بقوله : « والغريب أن المؤرخين المعاصرين الذين يكتبون سيرة عمر يتغاضون عن عنصر القسوة في هذه الحادثة ، تماماً كما أنهم يتغاضون عن قسوته في معاملته خالداً وإذلاله بعد خدماته الجلّى ، ولكن عبادة الأشخاص تحول دون رؤية الخطأ فيمن يعبدونه . » ـ ص ٦٠ .

أنحتاج إلى أكثر من هذه النقول عن المؤلف لنوقن أنه لم يعرف عمر ولا المبادىء التي يصدر عنها عمر ، وأن من عناهم بالمعاصرين ربما كانوا أعمق فهماً وأبعد عن السذاجة في الحكم . لقد أثار المؤلف في نفسي الإشفاق أكثر من شيء آخر ، حين كانت قدمه الواحدة على الأرض وحاول رفع الثانية إلى أعلى درجات السلم ، وذلك حين وازن ـ وفهمه للتاريخ هذا الفهم ـ بين أبي بكر وعمر .

عن عـلي :

١٠ ـ « كان بضربة سيفه يقطع الفارس وهو على صهوة جواده إلى نصفين ، النصف الأسفل يبقى على الجواد ، ويتدحرج النصف الأعلى على الأرض ! ! » ـ ص ٦٤ . (كذا)

١١ ـ قتل عثمان « نتيجة لمؤامرة اشترك بها المسلمون بمن فيهم (كذا) عليّ على ما يرجح ! ! » ـ ص ٦٤ .

١٢ ـ « كان علي يمارس سياسة مترددة متقلبة ... أعوزته مزايا الزعامة السياسية من بعد نظر ويقظة وحزم... هو زعيم فئة إسلامية كبيرة الشيعة ... والواقع أن علياً في معتقدات العامة من الشيعة يحتل مرتبة أعلى من مرتبة محمد ، وغلاتهم يؤلهونه » ـ ص ٦٧ .

١٣ ـ « الخلافة التي تولاها مؤسس الشيعة عليّ مدة خمس سنوات » ـ ص ١٣٣

١٤ ـ « أفلح عبيد الله المهدي في تسلم صولجان علي بن أبي طالب . » ـ ص ١٦٠ .

وكل هذا ليس من التاريخ في شيء ، فلم يشترك عليّ في مؤامرة ، وهو أتقى لله وأعلى نبلاً من أن ينحدر إلى هذا ، والمؤامرة سيق إليها بعض المسلمين بدسائس يهودي مريب هو ابن سبأ واستنكرها عامة المسلمين ، فقوله (اشترك فيها المسلمون بمن فيهم عليّ) جهل بالتاريخ وبعليّ معاً ، وعليّ صدر في مآتيه عن أحكام الشريعة لا عن سياسة متقلبة ولم تعوزه مزايا الزعامة السياسية ، ولكن خوف الله ألجمه عن كل دسائس السياسة ، ومن السذاجة والظلم معاً أن نقايس من نعرف من السياسيين من بغاة المناصب والمنافع أياً كانت السبل إلى منافعهم ، بمن كانت المثل العليا بين عينيه في كل ما يأتي وما يذر . والشيعة الذين يحلون علياً فوق مرتبة محمد لم يخلقهم الله ، وإنما خلقهم خيال الكتاب الأجانب وأهواؤهم ، والمؤلهون علياً ليسوا من الشيعة البتة . وعليّ لم يؤسس الشيعة ولا كانت على أيامه ، ولم يكن زعيمهم بل كان خليفة للمسلمين عامة ، ولا ابتغى ملكاً ولا صولجاناً ولا .. كل ما جاء في هذه الأسطر من أوهام يبرأ منها التاريخ الصحيح . ومن شدا شيئاً من التاريخ العربي في مصادره السليمة يعرف بطلان كل ما قال المؤلف .

في المقالات والعقائد :

١٥ — « الدين والفلسفة عدوان طبيعيان لأن الدين يعتمد الوحي والفلسفة تعتمد العقل » — ص ٢١٣ .

قول مردد كثيراً في أوروبا المسيحية ، لكن نقله إلى دين آخر ومكان آخر هو الباطل ، ولا تضاد بين الوحي الصادق والعقل السليم .

١٦ — « كان المعتزلة قد سبقوا المتكلمين (! ! !) في الأخذ عن الفلسفة الإغريقية والمنطق الأرسطي لدعم حججهم ، غير أن المعتزلة كانت لهم ميول فاطمية (! !) بينما كان المتكلمون من السنيين (! !) .

وإزاء المتكلمين كان هناك الشيعة الباطنية (! !) الذين كانوا يرون

أن للنصوص الدينية تفسيراً باطنياً أشرنا إليه عند كلامنا على الإسماعيلية ، ومقابل الباطنية كانت الفرقة التي تعرف بالظاهرية (! !) والتي تقول بالتفسير الحرفي للنصوص الدينية . » ! ! ـ ص ٢٠٣ .

وهذا كله تخليط من لا يعرف الفرق ولا مقالاتهم ، والمسلم به أنه لا يهجم على الكلام في الملل والنحل ارتجالاً . إنه يحتاج إلى دراسات متنوعة متأنية ، ونقول للمؤلف بإيجاز :

المعتزلة من المتكلمين بل هم أبرز أهل الكلام بين الفرق ، والكلام ليس قاصراً على أهل السنة ، بل في الشيعة متكلمون ، والباطنية ليسوا شيعة بعد ان انفردوا بمبادىء جديدة ولا يوضعون إزاء المتكلمين ، والظاهريون لا يقابلون الباطنيين ، إن الباطنية نحلة خاصة منطوية على نفسها ، والظاهرية ليست نحلة ولا طائفة ، هي مدرسة فقهية من أهل السنة كالشافعية والحنفية والزيدية والمالكية ، كلهم سنيون ...

وما كان أغنى المؤلف عن الخوض في هذه المتاهات لأمثاله كما خاض المستشرقون ، ولو تركها لأهلها لأراح واستراح .

في المذاهب الفقهية :

١٧ ـ « برزت شخصيتان الأولى منهما في الحقل الفكري (!) والثانية في الحقل الديني (!) وهما الإمام أبو حنيفة ومالك بن أنس ... كان أبو حنيفة عالماً يعنى بالنظريات (! !) وأما مالك فكان عالماً دينياً يمارس القضاء (! !) ... وكان المذهب المالكي يعتمد الحديث بينما المذهب الحنفي يعتمد القياس والرأي ... فلم يتأثر بمذهبهم (يعني أهل المدينة) الذي يعتمد الحديث والسنة ، بل كان يأخذ بالاستحسان والقياس ... فإن الفروقات (كذا) بين المذهبين قليلة ودقيقة بحيث أنه يصعب على الدارس أن يكتشفها . » ـ ص ٢٣٣ .

١٨ ــ « إن بعض الشعائر والعادات الدينية السابقة للإسلام (؟) ظلت متبعة بعد الإسلام عن طريق الإجماع ، وكذلك الأمر فيما كان يحسبه علماء الدين خروجاً على الدين أو بدعة باطلة فإنه بواسطة الإجماع أصبح أمراً مألوفاً مقبولاً في معتقدات العامة من الناس . » ــ ص ٢٤٧ .

الكلام الأول (١٧) عن أبي حنيفة ومالك تخليط مخترع أعجب مما سبق ، وليت من يجهل شيئاً لا يحاول (فبركة) المعلومات عنه ولا التفلسف فيه ؛ فأبو حنيفة ومالك (عالمان دينيان) عملا في حقل واحد هو الفقه ، والكتاب والسنة أصلان عند الإمامين لا يقدم عليهما شيء ، وأبو حنيفة لم يعنَ بالنظريات ، ومالك لم يكن قاضياً ، وكل هذا يعلمه المثقف العربي بالضرورة . وقد أثار المؤلف عجبي وحيرتي فقد قرر في أول الفقرة (١٧) أن لكل منهما حقلاً مختلفاً عن الآخر هذا يعنى بالنظريات (؟) وذاك عالم ديني ، ولم ينهِ الفقرة نفسها حتى نقض أولها فقال : « إن الفروقات (كذا عبارة المترجم) بين المذهبين قليلة ودقيقة بحيث أنه يصعب على الدارس أن يكتشفها » ! !

أما الفقرة (١٨) فكلها باطل لا أصل له ، فلا الشعائر الدينية تثبت عن طريق الإجماع ، ولا معتقدات العامة تجعل البدعة مقبولة ، والمؤلف ــ كما ظهر ــ لا يعرف الإجماع ما هو ، وما كان بدعة سيظل بدعة ، ولا علاقة لمعتقدات العامة في إثبات شريعة .

* * *

وبعد ، فلعل المؤلف الفاضل اقتنع كما اقتنع الكاتب بأن أدوات البحث لموضوع الكتاب غير متاحة له ، ومن هنا قلنا إن الكتاب ليس كتاب تاريخ بحال من الأحوال ، بل سجلٌ انطباعات في ذهن المؤلف بعد سنين وقراءات بعضها صحيح وأكثرها باطل .

أما حين ينفرد المؤلف مستقلاً عن غيره ــ وقلما يكون ذلك ــ فقد

يأتي بأحكام بعضها يستحق النقاش وبعضها يعوزه الإحكام والاحتياط في التعبير وبعضها سديد .

فمثال النوع الأول قوله عن القومية : « العصبية القبلية التي نسميها في لغتنا السياسية : القومية » .

ومثال النوع الثاني آخر جملة في الكتاب : « ابن خلدون أول من فلسف التاريخ ، وآخر جبار من جبابرة الفكر في الإسلام » [1] .

أما « أول من فلسف التاريخ » فوددت لو ألحق بها (في حد علمي) فالذي نشر من تراثنا هو الأقل، ومن يدري لعل الغد يكشف لابن خلدون سلفاً سابقاً ، وأما جملة (آخر جبابرة الفكر) فقد أذكرتني بقصيدة فيكتور هوغو يخاطب نابليون الأول الذي لقب وليده (أمبراطور الغد) وقوله له (الغد بيد الله لا بيدك) ، ومنذا حجّر فضل الله ألا يأتي من يفوق ابن خلدون في المستقبل . فهل انتهى عمر الدنيا يوم ألف المؤلف كتابه !.؟

وأما مثال النوع الثالث فقد كشف عن نظرة شاملة صحيحة سديدة ، يحاول كثير من الأجانب وأذنابهم سترها أو تزييفها، لقد أرسلها المؤلف واضحة قيمة لا عوج فيها ولا التواء في مطلع كتابه وذلك قوله [2] :

« لم يسجل التاريخ لنا اسم رجل واحد سوى النبي العربي محمد ، كان صاحب رسالة وباني أمة ومؤسس دولة ... هذه الثلاثة التي قام بها محمد كانت في نشأتها وحدة متلاحمة متراصة لا يمكن أن تنفصم الواحدة منها عن الأخرى ، وكانت إلى حدٍّ ما متوافقة يشد بعضها ازر بعض، وكان الدين من بينها ، على مدى التاريخ ، القوة الموحدة ، وكان أبقاها زمناً » .

هذا بعض ما سجلت حين قرأت الكتاب ، ووددت لو كان المؤلف قريباً

---

(١) ص ٣٥٣ .

(٢) ص ١٣ .

مني فأطلعه على كل ما سجلت وأذاكره في أمور كثيرة في كتابه[1]، فبعض انطباعاته المستقلة توحي بأن المذاكرة معه ليست عقيماً ، وأنا بعد أحسن الظن بالطبيعة البشرية وميلها إلى الخير إنْ خليتْ ونفسها، بعيداً عن كل مؤثر وموسوس .

• • •

إذا كان الحافز على نشر هذا الكتاب باللغة الإنكليزية أن يُقرأ في أمريكا وأوروبا حيث « لاقى النبي العربي والقرآن الكريم على يد المسيحيين في العصور الوسيطة من التشويه والتشنيع الشيء الكثير » إلى درجة أذهلت المؤلف فأراد بتأليفه هذا تصحيح كثير من تصوراتهم .. فصواب نشره هناك ظاهر ، وعمل المؤلف عمل إنساني نبيل ، والضرورة إليه ماسة ؛ ولكن هل كانت هناك حاجة إلى نشره بالعربية وقلّ مثقف في بلادها يجهل هذا القدر من المعلومات ، بل

---

(١) لا أدري ماذا تحمل الترجمة من تبعة أو إساءة ، لكني شعرت أنها ليست هناك ، وأن صاحبها غريب عن موضوع العرب والإسلام ، وأن الركاكة وسقم اللغة وضعف الثقافة تسيء إلى كل موضوع ، فمثلا :

ص ١٧ – « غاب حراء »، ليس في مكة غابات ، و (حراء) مغارة في جبل معروف في مكة .

ص ١٧ – و « يتهجمني لك العتي ترضى » كلمات لا معنى لها ، ولو رجع المترجم إلى حيث أشار المؤلف لوجد الصواب : « يتجهمني ، لك العتبى حتى ترضى » .

ص ٦٤ – « اشترك المسلمون بمن فيهم علي » تعبير غاية في الركاكة، ولو سلك السهولة فقال (اشترك المسلمون وفيهم علي) لنجا .

ص ٧٤ – « ذاكرش ناتيء ». الكرش تؤنثها العرب – انظر « مختار الصحاح » أصغر معجم صحيح .

ص ٨٨ – « اليمانيون » خطأ ، صوابه إما (اليمنيون) وإما (اليمانون) .

ص ١٣ – بنو أما » صوابها (بنوا أما) .

ص ١٣ – المؤلف لم يعز إلى مجموعة صور ، حتى يكتب تحت الآية : صورة البقرة . إنما عزا إلى السورة الثانية في القرآن الكريم : سورة البقرة .

... وهكـــذا .

يعرفه على صحته في مصادره الأصيلة السليمة ، والمجتمع العربي معافىً في الجملة من هذه الإحن الصليبية ومن ذلك التشويه والتشنيع ؟

سؤال أجيب أنا عليه بـ « لا » ويجيب المؤلف الفاضل بـ « نعم » ، ولعل في علمه عن بعض هذه البُؤر والبيئات ما ليس في علمي.

لقد أراد خيراً على كل حال ــ والله يجزي كلاً على نيته أخطأ أو أصاب ــ وفوق كل ذي علم عليمٌ .

المؤتمر الجغرافي بعد المؤتمر التاريخي

كانت كلية الآداب في بنغازي قد دعت إلى مؤتمر تاريخي حول (ليبية في التاريخ) فانعقد في (١٦ ــ ٢٣/ ٣/١٩٦٨ م) وكانت حصيلة بحوثه مجلداً كبيراً في سبعمائة صفحة من القطع الكبير نصفها بالعربية ونصفها الثـــاني بالانكليزية .

وفي هذا العام دعت كلية الآداب في بنغازي إلى مؤتمر جغرافي في مبناها الجديد بين ١٥ و٢٥/ ٣/ ١٩٧٥ م هدفه شمول الأرض الليبية كلها بدراسات حقلية في جميع التخصصات الجغرافية ، وستصدر جامعة بنغازي هذه الدراسات في مجلد ضخم ييسر تداولها في أيدي العلماء والمعنيين بهذه البحوث .

وقد لبى الدعوة نفر من الجغرافيين المتخصصين من البلاد العربية ومن انكلترا وفرنسا وألمانيا والنمسا والولايات المتحدة الأميركية وغيرها .

وترجو المجلة لهذا المؤتمر التوفيق والنجاح وألا تمضي شهور حتى تكون ثمراته في متناول الكليات ومعاهد البحث والعلماء والطلاب كما كان لسلفه المؤتمر التاريخي .

مطبوعات كلية الآداب

أصدرت كلية الآداب في جامعة بنغازي في مطبوعاتها لعام ١٣٩٤ هـ (١٩٧٤ م) الكتب الآتية :

١ – تاريخ الرومان (الجزء الثاني) للدكتور إبراهيم نصحي في (٨٣٦) صفحة .

٢ – الفلسفة الحديثة (عرض نقدي) للدكتور كريم متى في (٢٩٥) صفحة .

٣ – رسائل فلسفية (للكندي والفارابي وابن باجه وابن عدي) تحقيق الدكتور عبد الرحمن بدوي في (٣٠٤) صفحة .

٤ – حجة القراءات للإمام أبي زرعة حققه وقدم له مدخلاً في فن القراءات وتاريخه الأستاذ سعيد الأفغاني ، في (٨١٤) صفحة .

٥ – وثائق تاريخ ليبية الحديث .